

المجلد: 08/ العدد 01 جوان (2024)، ص.ص. 286-298

معايير النقد الأدبي العربي القديم بين الرؤية الفنية والإكراهات الأخلاقية.

Standards of ancient Arabic literary criticism between artistic vision
and moral constraints.

محمد رندي

rendi_1967@yahoo.com

جامعة تيسمسيلت

الجزائر

تاريخ النشر: 2024/12/02

تاريخ القبول: 2024/09/24

تاريخ الاستلام: 2024/07/03

الملخص

كثيرا ما يتساءل المهتمون بالنقد الأدبي العربي القديم، عن الأسباب التي حالت دون بناء نظرية نقدية عربية شاملة، على غرار النظريات النقدية الغربية، التي ارتهن لها اليوم النص الأدبي العربي، ولم يعد بوسعها أن يحيد عن المعايير التي حددتها لتحقيق جودته، مع اعتبار أي إخلال بها نزوعا إلى القبح الفني وسقوطا في الرذالة، وذلك بغض النظر عن موقف القارئ العربي من هذه المعايير التي قد تصادم مع قيمه أو حتى مع معتقداته، ويكفي هنا أن نسوق كمثال لذلك نظرية مثلي ومثليات الجنس النقدية التي لانعتقد أنها ستتسلل يوما إلى حقل النقد العربي، ومن هنا بات البحث عن السبيل لبناء نظرية نقدية عربية أكثر من ضروري، وهو بحث يمر حتما بمساءلة تراثنا النقدي الذي ظلت تتجاذبه الرؤى الفنية بكل مافيا من انحياز للجوانب الجمالية والنوقية من جهة، والإكراهات الأخلاقية ومافيا من إدعان للأخلاق والدين من جهة أخرى، ولعل هذا هو السبب الذي حال دون أن يبلغ النقد العربي المراتب التي بلغتها البلاغة مثلا أو علم العروض والفلسفة وعلم الكلام، وغيرها من العلوم ذات الصلة بالنقد الأدبي، ومن هنا يأتي هذا البحث الذي ننشد من خلاله الكشف عن أهم معايير النقد الأدبي العربي، والأسباب التي حالت دون تطورها لتشكل نظرية نقدية عربية.

الكلمات المفتاحية: النقد العربي القديم، معايير النقد، النظرية النقدية العربية، النظرية النقدية الغربية.

Abstract:

Those interested in ancient Arab literary criticism often wonder about the reasons that prevented the construction of an Arab critical theory, similar to Western critical theories, which today the Arabic literary text is dependent on and can no longer deviate from the standards it requires to achieve its quality, while considering any violation of it as a tendency to artistic ugliness and a fall in mediocrity, regardless of the position of the Arab reader on these standards that may clash with his values or even with his beliefs. We can cite as an example the theory of lesbian gays and queer criticism, which we do not believe will one day infiltrate the field of Arab criticism this research through which we seek to reveal the most important standards of Arab literary criticism, and the reasons that prevented its development to form a comprehensive Arab critical theory

Keywords: Ancient Arabic criticism, criticism parameters, Arabic critical theory, Western critical theory.

تمهيد

العرب من أكثر الأقوام ولعا بالمعيار، هذا ما تؤكد كنب التراث التي حاولت أن تفكك بنية العقل العربي، أو على الأقل التي حاولت معرفة الميكانيزمات والآليات التي يقوم عليها هذا الفكر، فهذا الجاحظ وهو من يكون، يرى أن كلام الأقوام غير العربية وبخاصة الفرس يأتي بعد طول فكرة واجتهاد، في حين يأتي كلام العرب بديهية وارتجالاً⁽⁰¹⁾ والجاحظ هنا يعتقد هذه المقارنة ليتباهى بالعقل العربي، ويعتبر ابتعاده عن التعقل والموضوعية واستناده على البدهية والارتجال مزية تحسب له، على عكس العقل الفارسي مثلاً الذي يتكبد عناء التفكير والتحصيل والتحليل والمقارنة والموازنة قبل أن يصدر أحكامه على الأشياء، ومن هنا نفهم لماذا حدد العرب معايير لكل شيء، فهم عندما يقيمون الشعر مثلاً، يرفضون كل ما لا يتوافق مع القواعد الشعرية المتوارثة، ومن هنا كانت فكرة عمود الشعر، التي يعتبرون الخروج عنها وقوعاً في المحذور، كما أن الخروج عن القيم الأخلاقية والتعاليم الدينية، إخلال أيضاً بأهم معايير عمود الشعر، وهو الأمر الذي طرح إشكالات حقيقية، إذ كثيراً ما بلغت الجودة الفنية في بعض القصائد قمتها رغم انتهاكها لما يمكن اعتباره قيماً أخلاقية، وبالمقابل التزمت قصائد أخرى بهذه المعايير الأخلاقية، لكن درجتها الفنية لم تبلغ الحد الأدنى الذي يضمن جمالياتها، ومن هنا زادت الهوة اتساعاً بين الفريق الذي ينتصر للجوانب الفنية للعمل الأدبي بغض النظر عن التزامها بالقيم الأخلاقية، والفريق الذي ينتصر للقيم الأخلاقية والتعاليم الدينية دون اعتبار للجوانب الفنية والجمالية.

01 - معايير النقد العربي القديم.

من الطبيعي جداً أن تراقق أية عملية إبداعية، حركة نقدية تتخذ أشكالاً وأساليب مختلفة، قبل أن تنضج وتتطور وتأخذ شكلها النهائي الذي تصلنا عليه، والنقد الأدبي العربي القديم لم يشذ عن هذه القاعدة، ورغم تعدد المرويات التي تؤرخ له، إلا أنه يمكننا أن نؤرخ لإرهاصاته الأولى بالقبة التي كانت تُضرب للناطقة الذيباني بسوق عكاظ، فيأتيه الشعراء يعرضون عليه قصائدهم ليبيد رأيهم فيها. يذكر أبو الفرج الأصفهاني عن حبيب بن نصر، وأحمد بن عبد العزيز أنه: "كان يُضرب للناطقة قبة من آدم بسوق عكاظ، فتأتيه الشعراء فعرض عليه أشعارها. قال: وأول من أنشدته الأعشى ثم حسان بن ثابت، ثم أنشدته الشعراء ثم أنشدته الحنساء بنت عمرو بن الشريد⁽⁰²⁾:"

وإن صغرا لتأتم الهداة به :: كأنه علم في رأسه نازر.

فقال: والله لولا أن أبا بصير أنشدني أفنا قللت إنك أشعر الجن والإنس. فقام حسان فقال: والله لأنا أشعر منك ومن أبيك، فقال له الناطقة: يا ابن أخي أنت لاتحسن أن تقول:

فإنك كالليل الذي هو مدركي :: وإن خلت أن المنتأى عنك واسع
خطاطيف حجن في حبال متينة :: تمد بها أيد إليك نـوازع.

قال: فحنس حسان لقوله⁽⁰³⁾

ما يمكن أن نلاحظه، إذا سلمنا بصحة هذه المروية، هي أن الناقد كان من الشعراء أنفسهم إن لم يكن أشعرهم كما جاء في رواية صاحب كتاب الأغاني، الذي ذكر أنه كان من الطبقة الأولى المقدمين على سائر الشعراء، مستدلاً في ذلك بقصة تنسب إلى الخليفة عمر بن الخطاب، مفادها أنه سأل عن شعر فلما أخبروه أنه للناطقة قال: إنه أشعر العرب⁽⁰⁴⁾، الملاحظة الثانية التي يمكن أن نخرج بها تتعلق بالمعيار الذي اعتمده الناطقة في تقييم أو في نقد الشعر، وهو معيار ذاتي يعتمد على ذوق الشاعر وعلى معرفته بفنون كتابة الشعر، وهو معيار مازال بعض النقاد يعتمدونه حتى يومنا هذا من خلال المنهج (التأثري أو الانطباعي)، وهو منهج لا يستند على أية خلفية علمية أو فلسفية، اللهم إلا ذوق صاحبه ودريته التي تتسع من خلال القراءة والاستماع، أو حتى من خلال الكتابة. لكن ربما كان للنقاد مذاهب أخرى في نقد الشعر، كما فعلت أم جندب التي احتكم لها زوجها امرؤ القيس وعلقمة ابن عبدة، الذي يقال له علقمة الفحل، فطلبت منها أن يقولوا شعراً في وصف الحيل على روي واحد وقافية واحدة، وبعد أن فعلا حكمت بالشعرية لعلقمة، فقالت لزوجها امرؤ القيس: علقمة أشعر منك. سألتها كيف؟ قالت: أنت قلت:

فللستوط ألهُوبٌ وللساق درّة :: وللتجر منه وقع أخرج مُهذَّب

فجهدت فرسك بسوطك، ومزيتته سباقك، أما علقمة فقال:

فأدر كهئ ثانياً من عنانهِ :: يمر كمرِّ الرائح المُتَحَلِّبِ.

فأدرك طريدهته وهو ثان من عنان فرسه، لم يضربه بسوط، ولا مراه بساق، ولا زجره. فقال امرؤ القيس: ماهو بأشعر مني ولكنك له وامي، فطلقها فحلف عليها علقمة، فسمي بذلك "الفحل" (05) والملاحظ على المعيار الذي اعتمدته أم جندب، أنه أكثر تطوراً من المعيار الذي كان يعتمد النابغة الذبياني، (رغم أنها عاشت في نفس الفترة الزمنية) فهو معيار لا يقوم على الذوق والتأثر فحسب، إنما يقوم على تحليل الصورة الشعرية ومقارنتها (موازنتها) بغيرها من الصور المشابهة، فصورة الفرس في شعر امرئ القيس تبدو - كما تراها الناقدة أم جنب - مضطهدة مفهورة تتعرض للضرب والزجر والتعنيف حتى تدرك طريدهتها، أما صورة فرس علقمة فتبدو متمتعة بعدوها مزهوة به لا تتعرض لأي أذى من صاحبها، وهو مارشح علقمة للتفوق على امرئ القيس، في بناء الصورة الشعرية، وهذا المعيار (المقارنة والموازنة) أخذ به حتى المتأخرون من نقاد العصر العباسي كما فعل الآمدي حين وازن بين البحري وأبي تمام.

مظهر آخر من مظاهر النقد الأدبي في العصر الجاهلي، جسدهته مجالس يثرب ومكة، فقد عُرف أهل يثرب بفصاحة اللسان، ويتذوق الشعر ونقده، وما يروى في هذا الصدد أن الشاعر الكبير النابغة الذبياني كان في شعره عيب الإقواء (06) فأرادوا أن ينهوه إلى عيبه دون تخرج، فأمرؤ جارية أن تغني قصيدته التي فيها هذا الإقواء، وتمد صوته في آخر الأبيات ليظهر جلياً، فغنت قوله:

أمن آل مية رآح أو معندي :: عجلا ن ذا زادٍ وغير مزودٍ
زعم البوارح أن رحلتنا غدا :: وبذاك خبرنا الغراب الأسود

وقوله أيضاً في القصيدة نفسها:

بمخضب رخص كأن بنانه :: عنم يكاد من اللطافة يعقد

فتنبه النابغة للعيب وعدل الأبيات ليتخلص من الإقواء فجعل الشطر الأخير من البيت الثاني (وبذاك تنعاب الغراب الأسود) والشطر الأخير من البيت الثالث (عنم على أغصانه لم يقعد) فزال الإقواء. (07) وإذا أردنا أن نقف عند المعيار الذي اعتمدته اليربوعون في نقد النابغة الذبياني، وهو من يكون شاعراً وناقداً، فإننا سنجد يعتمد السماع، بمعنى أنه يعتمد على تحليل المستوى الصوتي، الذي بات يشكل حجر الزاوية في الدراسات النقدية المعاصرة، خاصة التي تعتمد المنهج البنوي.

مجلس (شعري نقدي) آخر أكثر أهمية من مجلس يثرب، وهو مجلس مكة، أو مجلس قريش، الذي كان يعتبر مرجعاً أساسياً للعرب، تعرض فيه أشعارها، فما قبلته قريش نال التريكة والقبول، وانتشر وشاع، وما رفضته انحصرت ورُدَّ على صاحبه، وما يحكى عن هذا المجلس أن قدم عليهم علقمة بن عبدة فأشدهم قصيدته التي يقول فيها:

هل ماعلمت وما استودعت مكتوم :: أم حبلا أن نأتك اليوم مصروم

فقالوا: هذا سمط الدهر، ثم عاد إليهم العام المقبل فأشدهم:

طحا بك قلب في الجسنان طروب :: بُعِدَ الشباب عصرَ حان مَيسِبُ

فقالوا: هاتان سمطان الدهر. (08)

ما يستشف مما سبق هو أن المعيار المعتمد في الحكم على الشعر أو في نقده هو الذوق، وهو معيار لا يختلف عن معيار النابغة الذبياني، مع فرق المكانة التي كانت تتبوؤها قريش مقارنة ببقية القبائل، فقريش هي رأس اللغة والبلاغة العربية، واليه ترجع بقية القبائل في أخذ وتصويب اللغة العربية، لذلك لا غرابة أن توكّل لها مهمة تمييز رديء الشعر من جيده.. ولأننا لانهف من وراء هذا المبحث إلى الكشف عن كل حيثيات وتفصيل النقد الأدبي الجاهلي، فإننا سنكتفي بهذين المجلسين ولن نتطرق إلى معايير هذا النقد في مجالس وأندية أخرى، كانت منتشرة في الأرض العربية قبل ظهور الإسلام.

02 - تطور النقد الأدبي العربي بعد ظهور الإسلام.

- المعيار الديني لنقد الشعر في عصر صدر الإسلام

مع مجيء الإسلام تغيرت نظرة العربي إلى عديد الأشياء بسبب تأثير العقيدة الجديدة التي قلبت كيانه وحولته من وثني يعبد الأصنام، إلى موحد يعبد الله عز وجل وحده دون شريك، ومع ذلك فإن نظرتة إلى الشعر لم تتغير كثيراً،

فظل ديوانه، وظل علمه الذي ليس له علم أصح منه، على حد تعبير الخليفة الراشد عمر بن الخطاب، ولعل السبب الرئيس الذي سمح للشعر بالمحافظة على مكانته وسط المجتمع الإسلامي الجديد، هو موقف النبي صلى الله عليه وسلم منه، حين قال: إنما الشعر كلام مؤلف، فما وافق الحق منه فهو حسن، وما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه. كما ينسب إليه قوله: إنما الشعر كلام، فمن الكلام خيبث وطيب⁽⁹⁾، ولم يقتصر الموقف الإيجابي من الشعر على نبي الرحمة، إنما تجاوزه أيضا إلى مواقف الخلفاء الراشدين، والذين كانوا يمجّدون كتابة الشعر، فقد ذكر صاحب "الريحان والريعان"⁽¹⁰⁾ عن سعيد بن المسيب أنه قال: "كان أبو بكر وعمر وعلي يمجّدون الشعر، وعلي أشعر الثلاثة"⁽¹¹⁾

فإذا صحت هذه الرواية، فمن الطبيعي جدا أن يكون لهؤلاء دراية بالشعر ومعرفة بفنونه ماداموا يقرضونه، ورغبة في التشجيع عليه، خاصة إذا كان هذا الشعر يتوافق مع مقومات العقيدة الإسلامية، ولا يتعارض مع تعاليمها السمحة، ومما يروى عن الخليفة الأول، أبي بكر الصديق أن لبدا أنشدته قوله:

أأكل شيء ما خلا الله باطل :: وكل نعيم لا محالة زائل.

فتفاعل الصديق مع فكرة الشطر الأول لانسجامها مع الدين، وأنكر عليه فكرة الشطر الثاني وقال له: كذبت، فعند الله نعيم لا يزول⁽¹²⁾ وبغض النظر عن مدى صدق هذه المروية، وبغض النظر عن مدى صحة موقفه من شعر لبيد، فالثابت هو أن أراء أبي بكر الصديق تنطلق من المعيار الديني في نقد الشعر، وذلك بغض النظر عن الجوانب الفنية، وهذا المعيار (الديني) يشترك فيه جميع الخلفاء الراشدين، فهذا عمر ابن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين، كان من أشد المعجبين بشعر زهير بن أبي سلمى، لما فيه من حكم وفصائل ومواعظ تتماشى مع تعاليم الدين الخفيف، حتى أنه ذات مرة طلب من عبد الله بن عباس أن ينشده شيئا من شعر أشعر الناس الذي لا يعاقل بين القوافي، ولا يتبع حوشي الكلام، قال من ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: زهير بن أبي سلمى فلم يزل ينشده من شعره حتى أصبح⁽¹³⁾.

ولم يكن الفاروق عمر بالاستماع إلى الشعر ويتبع قصائد فحوله ممن لا يتعارض شعرهم مع مبادئ العقيدة، إنما دعا إلى تعلمه وحث على تعليمه، كما فعل في رسالته إلى أبي موسى الأشعري: "مُرْ مَنْ قَبْلَكَ بتعلم الشعر فإنه يدل على معالي الأخلاق، وصواب الرأي، ومعرفة الأنساب"⁽¹⁴⁾. ومن الواضح أن الشعر الذي يدعو الخليفة عمر إلى تعلمه ليس هو مطلق الشعر، إنما الشعر الذي يستوفي الشروط الثلاثة التي ذكرها، أي (الدلالة على معالي الأخلاق - وصواب الرأي - ومعرفة الأنساب)، وهي شروط لا تتوفر في كل قصيدة، إنما تتوفر فقط في القصائد التي تلتزم الرؤية الدينية التي تحددها الشريعة الإسلامية، ومن هنا نلاحظ كيف أن الخليفة عمر بن الخطاب الذي يعتبر أكثر الخلفاء اهتماما بنقد الشعر، يعتمد معيارا وحيدا دون غيره، وهو معيار الدين، فهو يمتدح كل من وافق شعره آداب وتعاليم الإسلام، حتى ولو كان من شعراء الجاهلية، ويذم كل من خالف هذه الآداب والتعاليم حتى ولو كان مسلما، كما فعل مع الخطيئة، حين قال:

مَتَى تَأْتَيْتَ تَعْشُوْا إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ :: تَجِدْ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرٌ مَّقْدٍ

فرد عمر بقوله: "كذب، بل تلك نار موسى نبي الله صلى الله عليه وسلم"⁽¹⁵⁾ ومن هنا تظهر أهمية المعيار الديني عند الخلفاء الراشدين في الحكم على الشعر، فبعد أبي بكر وعمر، يأتي الدور على علي كرم الله وجهه، والذي كان أشعر الخلفاء الراشدين كما ذكر صاحب "الريحان والريعان"، وقد وحملت لنا كتب التاريخ الكثير من الشعر المنسوب إليه ومن بينها ديوانه المطبوع⁽¹⁶⁾، وله عديد القصائد المشهورة التي يتغنى بها الناس، كذلك التي تتغنى بفضل العلم، والتي مطلعها:

النَّاسُ مِنْ جَهْمَةِ التَّيْمَالِ أَكْفَاءُ :: أَبَوْهُمْ آدَمُ وَالْأُمُّ حَوَاءُ⁽¹⁷⁾

فضلا عن قصائد أخرى لا يتسع المجال لذكرها، وهي قصائد تضعه في مصاف كبار شعراء عصر صدر الإسلام، هذه المعرفة بالشعر سمحت له بتأسيس آرائه النقدية ليس وفق المنظور الديني فحسب كما فعل سابقوه، لكن أيضا وفق المنظور الفني، فقد كان نقده للشعراء كما يقول عباس محمود العقاد "نقد علم بصير، يعرف اختلاف مذاهب القول، واختلاف وجوه المقابلة والتفضيل على حسب المذاهب"⁽¹⁸⁾، ويمكننا أن نستشهد على مذهبه النقدي هذا بتفضيله لشعر امرئ القيس، فقد أورد ابن رشيق القيرواني في كتابه العمدة، رواية عن عبد الكريم أنه قال: "وامرؤ القيس

يماني النسب، نزارى الدار والمنشأ، وفضله علي رضي الله عنه، بأن قال: رأيته أحسنهم نادرة، وأسبقهم بادرة، وأنه لم يقل لرغبة ولا لرغبة⁽¹⁹⁾

هذا الموقف النقدي، والذي لم يكذبه النقد العربي منذ نشأته إلى يومنا هذا، حتى وهو يستعين بمختلف المناهج والنظريات المعاصرة، يعكس عمق رؤية علي كرم الله وجهه النقدية، فهو لم ينتصر لحكمة زهير كما فعل عمر ابن الخطاب، ولا لنبوغ الذبياني كما فعل أبوبكر الصديق، إنما انتصر لروح الفن في شعر امرئ القيس، حتى وإن كانت ثمة أحاديث تجرم هذا الشاعر إن صح، مثل: "امرؤ القيس صاحب كواء الشعراء إلى النار" وهو الحديث الذي لا يتسع المقام لمناقشته. ولقد أوردناه فقط للتأكيد على أهمية الجانب الفني في التأسيس للموقف النقدي عند علي بن أبي طالب، بعيدا عن أي تأثير خارجي. وهو موقف تطور مع الوقت وتبلور أكثر مع نقاد العصر الأموي كما سنرى.

النقد الأدبي في العصر الأموي وبداية ظهور النقد المعلن.

لقد كان للتحويلات السياسية والاجتماعية التي عرفها المجتمع الإسلامي مع بزوغ فجر الدولة الأموية، انعكاسه المباشرة على الحركة الأدبية عامة وعلى النقد الأدبي خاصة، فخلقاء بني أمية - الذين كانوا على درجة عالية من الذوق والحس الأدبي - فتحوا أبوابهم للشعراء والنقاد، وأجزلوا لهم العطايا والهدايا في مجالس كانوا يحضرونها بأنفسهم، مما أوجع روح التنافس بينهم فكان لذلك أثره البالغ في تطور النقد العربي مقارنة بما كان عليه في عصر صدر الإسلام، وفي العصر الجاهلي، فقد بدأ مع هذا العصر التأسيس للنقد التعليلي، الذي لا يكتفي بإصدار الأحكام، إنما يسعى إلى تعليلها وتبريرها. ويمكننا أن نميز في هذا العصر ثلاث بيئات نقدية أساسية، وهي: الحجاز، الشام، والعراق.

أ. النقد في الحجاز: وقد تمحور هذا النقد كله تقريبا حول دراسة الظاهرة الشعرية الجديدة التي جاء بها عمر بن أبي ربيعة، وهي ظاهرة الغزل المالحن، التي شكلت تجربة جديدة في البيئة الحجازية تفاعل معها الشعراء قبل النقاد، ومن هنا يمكن الحديث عن أول صورة من صور النقد الأدبي في العصر الأموي، وهي نقد الشعراء بعضهم بعضا، خاصة نقد الشعراء (نصيب بن رباح والغزدق وجريز وجميل)، للشاعر عمر بن أبي ربيعة الذي قلنا أن شعره كان يشكل ظاهرة شعرية جديدة، فهذا الشاعر نصيب بن رباح مثلاً يقول عن عمر بن ربيعة: لقد كان أوصفنا لربات الحجال⁽²⁰⁾ وهو القول الذي يركبه عميد الأدب العربي طه حسين في كتابه حديث الأربعاء، حيث يقول: "ولم يخطئ نصيب حين قال عمر بن أبي ربيعة أوصفنا لربات الحجال، فلم يعرف العصر الأموي كله شاعرا وصف المرأة جملة وتفصيلا بمثل ما وصفها عمر بن أبي ربيعة جودة وكثرة ودقة بنوع خاص"⁽²¹⁾ ولم يقتصر النقد في هذه البيئة على نقد الشعراء بعضهم بعضا، إنما ظهر بعض النقاد المتخصصين ولعل أشهرهم: الناقد ابن أبي عتيق، والناقدة سكينه بنت الحسين.

01. الناقد ابن أبي عتيق، وتغليب المعيار الفني على المعيار الديني: وقد اعتمدت رؤيته النقدية على معايير فنية دقيقة، كما يوضحه صاحب الأغاني، عند الحديث عن المفاضلة بين شعر عمر بن ربيعة وشعر الحارث بن خالد، يقول: "أخبرني الحرثي قال حدثنا الزبير قال حدثني عبد الملك بن عبد العزيز بن الماجشون، عن عمه يوسف، قال: ذكر شعر الحارث بن خالد، وشعر عمر بن أبي ربيعة عند ابن أبي عتيق في مجلس رجل من ولد خالد بن العاصي بن هشام، فقال صاحبنا - يعني الحارث بن خالد أشعرهما، فقال له ابن أبي عتيق بعض قولك، يا ابن أخي، لشعر عمر بن ربيعة نوبة في القلب، وعلوق بالنفس، ودرك للحاجة ليست لشعر، وماعصي الله جل وعز بشعر أكثر مما عصى بشعر ابن أبي ربيعة، فخذ عني ما أصف لك: أشعر قریش من رق معناه، ولطف مدخله، وسهل مخرجه، ومتن حشوه، وتعطفت حواشيه، وأنارت معانيه، وأعرب عن حاجته."⁽²²⁾ وهنا يتضح بما يبدع مجالا للريب أن الناقد ابن أبي عتيق لا يعير اهتماما للمعيار الديني في نقده الشعر، فهو يعتمد رؤية فنية خالصة في نقد الشعر، نوجزها فيما يأتي:

- * تمكن الشعر من النفوس والقلوب وتأثيره فيها، حتى يحس السامع بما أحس به الشاعر
- * قدرة الشاعر على نقل مشاعره إلى غيره نقلًا أمينًا، بطريقة فنية تصور عواطفه وتوصل تجربته إلى السامع.
- * التمييز بين الجمالي الفني الذي تتجمع فيه خصائص الشعر الجيد، ومخالفة مبادئ الدين التي لاتنفي عن هذا الشعر جمالياته.

* الاحتكام إلى مجموعة من المقاييس الفنية للمفاضلة بين الشعراء وهي: دقة المعنى، رقة اللفظ ولطفه، سهولة المخرج أي سلاسة الانتقال من غرض إلى آخر، ومتانة الحشو، بمعنى ترابط النص الشعري وتماسك أجزائه. (23) وإذا كان لهذه الرؤية النقدية ما يبررها في بيئة حجازية كانت الحاضرة الأولى لميلاد الطبقة المحملية التي لا يهملها من الحياة إلا ترفها ولهوها ومجونها، فإن السؤال المطروح وهو إلى أي مدى كان لهذه البيئة تأثيرها على الناقدة الثانية الأكثر أهمية بعد ابن أبي عتيق، والمقصود هنا سكينة بنت الحسين.

02- الناقدة سكينة بنت الحسين والمعيار الذاتي في نقد الشعر: يتصل نسبها ببيت النبوة مباشرة، حيث وُلدت وترعرعت، فهي ابنة الحسين بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، سيدة نساء عصرها وواحدة من أكثر النساء العربيات اللواتي اهتم المؤرخون بتدوين سيرهن، ليس فقط بسبب نسبها الشريف أو بسبب شخصيتها القوية التي تحددت السلطة السياسية والدينية في زمنها، ولكن أيضا بسبب منزلتها الأدبية، فهي الشاعرة والناقدة التي كانت تفتتح منزلها للأدباء والشعراء، تسمع منهم وتقول رأيها في أشعارهم، بل وتختبرهم أحيانا في أشعار غيرهم، فكما تذكر الروايات أنها كانت تستقبل الشعراء في بيتها، وتضع بينهم وبينها حجابا حيث تراهم هي ولا يرونها هم، ثم ترسل بوصيفة تلعب دور الوسيطة بينها وبين ضيوفها في نقل الكلام منها إلى ضيوفها والعكس، وقد أنشدت مرة قول الحارث بن خالد في وصف النساء في الحج:

ففرغن من سبع وقد جمدت :: أحشاؤهن موائل الحجر.

وسألت من بالجلس أحسن عندكم مقال؟ قالوا: نعم.
قالت وما حسنه؟ فوالله لو طافت الإبل سبعا لجهدت أحشاؤها. (24)، مما يُظهر ذكاءها ودقة ملاحظاتها في الانتباه إلى ما يخفى عن الآخرين. ويذكر صاحب الأغاني رواية أخرى عنها، نحاول أن نختصرها، وهي تتعلق باستضافتها خمسة شعراء هم: جرير، الفرزدق، كثير، جميل، ونصيب. قعدت حيث تراهم وتسمع كلامهم ولا يرونها. وكانت في كل مرة ترسل وصيفتها إلى أحدهم، تنقل إليه رأيها فيما اختارته من شعره، فكان أن أنكرت على الفرزدق إفشاء سره وسر صاحبه، وأثنت على جرير لعفة شعره وإن أنكرت ضعف أسلوبه في مخاطبة زائرتة، وأعجبتها أبيات كثير في وصف صاحبه، لما لحت فيه من دقة التعبير عن عزة الأنثى وطبيعة حواء. (25)

ما يمكن أن نستخلصه من هذه الأحكام النقدية التي يحدثنها عنها صاحب الأغاني، أن الناقدة سكينة بنت الحسين، كانت تحتكم بالدرجة الأولى إلى ثقافتها الشعرية، وتتلقى الشعر وفق هذه الثقافة التي صنعت ذوقها، بمعنى أن نقدها كانت تتحكم فيه أحاسيسها بالدرجة الأولى، لأننا بمراجعة بعض أحكامها النقدية فإننا نجد مخالفة حتى للمنطق، وهو ما يؤكد الطابع الذاتي لنقدنا.

وخلاصة القول أن النقد الأدبي في الحجاز تمحور حول موضوع الغزل، سواء العفيف منه أو الماجن، فإذا كان الشاعر عمر بن أبي ربيعة هو محور النقد الذي تسيده ابن أبي عتيق، فإن شعراء الغزل العفيف أمثال جميل بثينة، وكثير عزة، ونصيب، وجرير، والفرزدق، كانوا هم محور النقد الذي تسيده سكينة بنت الحسين، وإذا كان النقد في البيئة الحجازية قد انشغل بغرض الغزل عامة، فأى الأغراض انشغل بها نقد البيئة الشامية؟ هذا ما سنحاول أن نجيب عنه.

ب - النقد في الشام: عندما نتحدث عن الشام، فإننا نتحدث عن عاصمة الخلافة الإسلامية دمشق التي كان يقصدها الشعراء والأدباء والنقاد والعلماء والفقهاء من كل حذب وصوب، فقد كانت مجالس الخلفاء تعج بالشعراء الذين يتنافسون على مدح الخلفاء، وبالنقاد الذين يحكمون على هذا المديح أو ذاك فيستحسنونه أو يستهجنونه، بل إن من الخلفاء أنفسهم من كان على معرفة كبيرة بقواعد الشعر، وعلى درجة عالية من تذوقه، فكانوا يضطلعون بمهمة النقد بأنفسهم، ولكن قبل أن نسرّد نماذجا من نقود هذه البيئة، نود أن نشير إلى أن الكثير من شعر الشام، ونحن هنا نتحدث عن المديح بالدرجة الأولى، كان سمجا رديئا يمجّه الذوق، ومع ذلك كان الأمراء يجازون أصحابه عنه انتقاء هجائهم، وهنا نورد قصة زياد بن أبيه الذي سمع شاعرا يمدح معاوية بقوله:

معاوية التقي السـ
ري أمير المؤمنين
أعطى ابن جعفر مالا
فقضى منه الديونا

فأجزل له العطاء فقيل له: أعطني على مثل هذا الشعر؟ فقال: نعم. إن الشعر كذب وهزل، وأحقه بالتفضيل أهزله، ولكن الحقيقة أنه لم يعطه لهذا ولو كان صريحا لقال: إن الشعر فن وسياسة، فأنا أعطيته الآن للسياسة لا للفن.⁽²⁶⁾، هذا السلوك يمكن أن يوحي لنا بمعايير النقد المتنوعة في هذه البيئة، وهي معايير لاعلاقة لها بالجانب الفني كما كانت معايير النقد في الحجاز، ولا علاقة لها بالجانب الديني كما كانت معايير النقد في عصر صدر الإسلام، إنما لها علاقة بالجانب السياسي، وهو أمر طبيعي مادام الغرض يتعلق بالمدح. لكن هذا لا يعني أن النقد في الشام لم يكن يحتكم للمعايير الفنية، ويمكن أن نستدل على ذلك بأبيات يوردها صاحب الموشح للشاعر النخعي أنشد لها لعبد الملك بن مروان، فعندما بلغ قوله:

أَخْلَيْفَةُ الرَّحْمَنِ إِنَّا مَعَشَرٌ :: حُنَفَاءُ نَسْجُدُ بِكْرَةً وَأَصِيلًا
عَرَبٌ نَرَى لِلَّهِ مِنْ أَمْوَالِنَا :: حَقَّ الزَّكَاةُ مُتَرَّلاً تَنْزِيلًا

فقال له عبد الملك: ليس هذا شعرا، هذا شرح إسلام، وقراءة آية.⁽²⁷⁾ وعبد الملك بن مروان لا يحتاج منا إلى تعريف، فكتب التاريخ تجمع على أنه المؤسس الثاني لدولة بني أمية، وقد كان مضربا للمثل في الفصاحة، معروفا بالعلم، خيرا بالأدب والشعر، نجده في حكمه النقدي هذا يستبعد المسائل الدينية لأنها ليست من وظائف الشعر، إنما هو شعور وإحساس يعبر عنها في بيان جميل، ونغم بديع وتصوير مفتن.⁽²⁸⁾، لكن النقد في الشام ليس عبد الملك بن مروان فحسب، إنما هو أيضا مجموع الأدباء والشعراء الذين كانوا يترددون على مجلسه، فيتيح لهم فرصة التعبير عن آرائهم في أشعار بعضهم بعضا، وما يروى في هذا الصدد، أن: "كثير عزة دخل على عبد الملك ابن مروان، وعنده الأخطل، فأنشده، فالتفت عبد الملك إلى الأخطل فقال: كيف ترى هذا الشعر؟ فقال: حجازي مجزج مقرر، دعني أضغفه يا أمير المؤمنين. فقال كثير من هذا يا أمير المؤمنين؟ فقال له هذا الأخطل. فقال له كثير: مهلا، هلا ضغف الذي يقول:

لاتطلبن خثولة من تغلب :: فالترنج أكرم منهم أخوالا
والتغليبي إذا تنحج للقرى :: حك استة وتمثل الأمثالا.⁽²⁹⁾

فسكت الأخطل فما أجابه بحرف.

قال أبو العباس: سمعت من ينشد هذا الشعر: **والتغليبي إذا تلبج للقرى** وهو أبلغ.⁽³⁰⁾

والواضح هنا هو انتقاص الأخطل من قيمة شعر كثير، واستئذانه عبد الملك بن مروان ليسفهه ويحط من قيمته، ويكشف عن عيوبه، لكن كثير لم يمهله وذكره ببنتين شهيرين هجاه بهما جرير، وقال له كان الأجدر بك تسفيهه هذا الشعر الذي يطعنك، فلم يجد الأخطل ما يرد به. ولم تقتصر المجالس الأدبية على مجلس عبد الملك بن مروان، إنما امتدت لتشمل مجالس عديد الخلفاء، حيث سار أبناؤه الوليد ومسلمة وسليمان على نهجه، باستضافة الشعراء وإجزال العطاء لهم نظير مدحهم، ومن هنا نستطيع القول أن النقد في البيئة الشامية تمحور حول غرض المدح، على خلاف البيئة الحجازية التي طغى فيها غرض الغزل، فكان موضوعا للنقد، ليبقى التساؤل المطروح عن هوية الغرض الشعري الذي تمحور حوله النقد في العراق، وهو ما سنحاول أن نجيب عنه.

ج - النقد في العراق: أرض العراق هي البيئة الثالثة التي شكلت إحدى الحواضن الرئيسة للنقد الأدبي في العصر الأموي، إذ يمكننا القول أن هذه البيئة كانت الأكثر تنوعا والأكثر خصوصية، لأن الشعر في العراق لم يقتصر على غرض واحد كما حدث في الحجاز (غرض الغزل) وفي الشام (غرض المدح) إنما تنوعت أغراضه بين فخر وهجاء وبدرجة أقل غزل ووصف، حتى باتت القصيدة الأموية في العراق أقرب إلى نمطها الجاهلي، الأمر الذي أسفر عن رؤية نقدية تعتمد المفاضلة والموازنة بين الأعمال الشعرية، كما كان لبداية ظهور الحركات السياسية في هذه البيئة (العراق) دور في ابتعاد الشعراء عن التكبس بمدح الخلفاء والأمراء، وهذا ما نجم عنه أيضا ظهور حركة نقدية تلتزم بالمعايير الدينية والخلقية.⁽³¹⁾، وهو ما يعني في نظر البعض العودة إلى معايير النقد في صدر الإسلام، لكنها عودة مشروطة بأخذ الجوانب الفنية والجمالية بعين الاعتبار، خاصة مع وجود الكثير من الشعراء الذين ذاع صيتهم في تلك البيئة، ومنهم ثالوث النقائص (الفرزدق، جرير والأخطل).

هؤلاء الشعراء الثلاثة أعادوا للقصيدة العربية بعض بريقها الذي خفت في مرحلة صدر الإسلام، وقد كان للمنافسة الدائمة بينهم أثرها في ظهور عديد النقاد الذين وازنوا بين أشعارهم حتى أن بعض هذه الموازنات جاءت في شكل منظوم، كما فعل الصلتان العبدى حينما حكم بين الفرزدق وجريز فجاء حكمه بينها منظوماً في قصيدة يقول فيها:

أنا الصلتاني الذي قد علمتُ :: متى ما يُحكَّم فهو بالحق صَادِعُ
سأقضي قضاءً بينهم غير جائر :: فهل أنت للحكم المئين سامِعُ
أرى الخطفي بَذَ الفرزدقُ شعْرُهُ :: ولكن خيرا من كليب مُجاشِعُ
فيا شاعرا لا شاعرا اليوم مثله :: جريز، ولكن في كليب تواضع
جريز أشد الشاعرين شَكِمة :: ولكنَّ علتُهُ الباذخات الفَوَاحِ
ويرفع من شعر الفرزدق أنه :: له باذخ لذي الحسنية رافع.⁽³²⁾

يتضح مع هذه المقطوعة الشعرية التي تحمل أحكاماً نقدية ظهور نوع جديد من النقد يعتمد على الموازنة، التي تطورت أكثر في العصر العباسي مع الأمدى. مع أن هذه الموازنة لم تقتصر على الشعراء الثلاثة سالف الذكر (جريز، الفرزدق والأخطل) إنما تجاوزتهم إلى شعراء آخرين أمثال: كعب بن جعيل، النابغة الجعدي، ذي الرمة، وغيرهم. وغير بعيد عن معسكر هؤلاء، كانت حركة الخوارج وحراكها الأدبي المغاير، حركة بطابع سياسي كان لها شعرها القوي الذي لا يعتمد مديحاً ولا غزلاً ولا هجاء، إنما هو شعر يقصد به أصحابه إرضاء عواطفهم بالاستهانة بالموت في سبيل الله (كما يعتقدون) والحث على الشجاعة والاقدام والموت وبيع النفس، وقد كان من الطبيعي أن يواكب هذا الشعر نقد من صميمه، نقد يستهزئ بمن يتسحون بالملوك والأمراء، ويتكسبون بشعرهم، نقد يرى أن الشاعر الحق من صدق في قوله، واتقى الله في شعره، ومن نماذج نقدهم قول عمران بن حطان في الفرزدق عندما مر به وهو ينشد والناس حوله:

أيها المادح العباد ليعطي :: إن لله ما بأيدي العباد
فاسأل الله ماطلبت إليهم :: وأرج فضل المقسم العواد
لاتنقل في الجواد ما ليس فيه :: وتسم البخيل باسم الجواد⁽³³⁾

اتجاه نقدي آخر ظهر في العراق، وقد مثله اللغويون، الذين كانت لهم بصمتهم على النقد الأموي، ونذكر من بين رواد هذا الاتجاه، الأصمعي، حماد الراوية، خلف الأحمر، المفضل الضبي، أبو عبيدة، الحضرمي، وغيرهم، وقد استندت نقد هؤلاء على أمور اللغة والنحو والإعراب، ناهيك عن الذوق الموسيقي والأثر اللغوي.

وخلاصة القول هي إن النقد الأدبي في العصر الأموي، توزع على ثلاث بيئات رئيسة (الحجاز، الشام، العراق) ولئن كان النقد في الحجاز محوره الغزل وفي الشام محوره المدح، فإنه في العراق كان ثرياً ومتنوعاً، استطاع أن يعيد للشعر العربي بريقه بظهور إرهابات عدة اتجاهات نقدية، تبلورت أكثر وتشكلت في العصر العباسي كما سنرى.

النقد الأدبي في العصر العباسي وبداية التأسيس للمنهج.

إذا كان العصر الأموي - بيناته الثلاث، (الحجاز، الشام، والعراق) - يشكل الإرهاصات الأولى لميلاد النقد الأدبي العربي، فإن العصر العباسي يشكل مرحلة التأسيس المنهجي لهذا النقد، الذي انتقل من طور الرواية والمشافهة إلى طور التأليف والتدوين، فمع بداية القرن الثالث الهجري بدأت الكتب النقدية بالظهور، بداية بكتاب فحولة الشعراء، وللأصمعي وبعده طبقات فحول الشعراء، لابن سلام الجمحي ثم البيان والتبيين، للجاحظ، الشعر والشعراء، لابن قتيبة، أدب الكاتب، لنفس المؤلف، قواعد الشعر، لأيي العباس ثعلب، البديع في البديع، لابن المعتز، عيار الشعر، لابن طباطبا العلوي، شرح القصائد السبع الطوال، لابن الأنباري، نقد الشعر، لقدامة بن جعفر. لتتعرّز في القرن الرابع الهجري بمؤلفات جديد مثل: كتاب الأغاني، لأيي الفرج الإصفهاني، الموازنة بين أيي تمام والبحري، للآمدي، الموشح، للمرزباني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، للقاضي الجرجاني، كتاب الصنائع والكتابة والشعر، لأيي هلال العسكري، كتاب زهر الآداب وثمر الألباب، لأيي إسحاق القيرواني.

أما كتب القرن الخامس الهجري فنذكر منها: شرح ديوان الحماسة، للمرزوقي، العمدة في صناعة الشعر ونقده، لابن رشيق، أسرار الفصاحة، للخفاجي، دلائل الإعجاز، لعبد القاهر الجرجاني، وكتب القرنين السابع والثامن: كالجامع الكبير في صناعة المنظوم لابن الأثير، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، لحازم القرطاجني، الروض المربع في صناعة البديع،

للمراكشي، المتزعم البديع في تجنيس أساليب البديع، للسجلاسي، وغيرها من الكتب التي لا يتسع المقام لذكرها جميعها، لأن ما يهنا هو ليس عناوين هذه الكتب، وإنما هي الوقوف على التطور الذي عرفه النقد في هذا العصر، والذي تجاوز الذاتية والإطباعية إلى الموضوعية والمنهجية.

قضايا النقد الأدبي في العصر العباسي :

رأينا كيف ساهمت بيئة العراق في التقدم بالنقد الأدبي العربي خطوات إلى الأمام، بتجاوز الكثير من المعايير السابقة، كمعيار الدين و معيار الذوق، وابتدعوا معايير جديدة تعتمد الموازنة بين الشعراء بما يسمح بالمقارنة والمفاضلة بينهم، وهو المعيار الذي تطور أكثر مع بدايات العصر العباسي عندما ظهر كتاب طبقات فحول الشعراء.⁽³⁴⁾ الذي صنف فيه الشعراء الجاهليين عشرة طبقات، وضع في كل طبقة أربعة شعراء، ففي الطبقة الأولى مثلاً وضع: النابغة الذبياني، زهير بن أبي سلمى، امرأ القيس، والأعشى⁽³⁵⁾ أما الطبقة الثانية فوضع فيها الشعراء: أوس بن حجر، بشر الأسدي، كعب بن زهير، الحطيئة.⁽³⁶⁾ وهكذا إلى أن وصل إلى الطبقة العاشرة. ونفس الشيء فعله مع الشعراء الإسلاميين الذين صنفهم إلى عشرة طبقات أيضاً، ووضع على رأسهم طبقة تتكون من (جرير والفرزدق والأخطل والنميري)، كما ذكر تسعة من شعراء مكة، وخمسة من شعراء الطائف وثلاثة من شعراء البحرين، وعدداً من شعراء اليهود.⁽³⁷⁾

هذا التصنيف ولاشك أنه لم يكن اعتباطياً، إنما اعتمد صاحبه مجموعة من المعايير التي يعتبر بعضها امتداداً لمعايير النقد الأموي والجاهلي، أما بعضها الآخر فيعتبر تجديدًا، ساهم النقاد اللاحقون في تطويره أكثر، خاصة مع اتساع رقعة الدولة الإسلامية واحتكاكها بحضارات وثقافات الدول والأجناس الأخرى، فبدأت تتشكل ملامح النقد الأدبي الجديد الذي تحول إلى فن وصناعة بعد أن كان يصدر عن طبع وسليقة.⁽³⁸⁾ هذا التحول حمل معه رؤية جديدة تهتم بدراسة مجموعة من القضايا التي يمكن أن نوجزها فيما يلي:

أولاً: قضية اللفظ والمعنى: وهي من أهم القضايا التي خصص لها النقد العباسي حيزاً كبيراً، رغم أن جذورها تعود إلى النقد الجاهلي كما يذكر صاحب "الموشح"، عندما تحاكم شعراء بني تميم إلى ربيعة بن حذار الأسدي، ليقضي بينهم أيهم أشعر، فقال ربيعة للزبرقان: أما أنت فشعرك كلحم أسخن لاهو أنضج فأكل ولا ترك نبتاً فينتفع به. أما أنت ياعمرؤ (يقصد عمرو بن سنان) فإن شعرك كبرود حبر يتلأأ فيها البصر، فكلماً أعيد فيها النظر نقص البصر، أما أنت يا مخبل فإن شعرك قصر عن شعرهم، وارتفع عن شعر غيرهم. وأما أنت ياعبد فإن شعرك كمزادة أحكم خرزها فليس تقطر مالم تمطر.⁽³⁹⁾

فالملاحظ هنا هو تركيز ربيعة على الألفاظ التي اعتمدها كل شاعر، وماتوحي به من معان، فوجد أن اللفظ في شعر الزبرقان فقد جزالته وقوته، ففترت عاطفته وعجزت عن توصيل المعنى المراد، أما شعر عمرو بن سنان، فوجد أن لفظه مما يلفت الانتباه عند أول نظرة لكنه سرعان ما انتضح بساطته فلا تجده ينطوي على كبير معنى، كذلك الألفاظ التي اعتمدها المخبل السعدي، والتي وإن كانت لا تخط من شعره إلا أنها لا ترفعه إلى درجة الفحول، على عكس الألفاظ التي استعملها الشاعر الأخير عبدة، والتي فيها إحكام وجزالة وقوة ترفع من درجة شاعرية صاحبها.

قضية اللفظ والمعنى في العصر العباسي أخذت منحى آخر يختلف عن ذلك الذي اتخذته في العصر الجاهلي، أوحى في العصر الأموي، فمعالجة هذه القضية تنطلق من فصل اللفظ عن المعنى، مع اختصاص كل غرض شعري بألفاظ معينة لا يمكن أن تختص بغرض آخر، بمعنى أن الألفاظ التي تختص بغرض الهجاء مثلاً، لا يمكن استعمالها لغرض المدح، ومن هنا كان انتقاد الكلام الذي فقد التلاؤم والانسجام بين لفظه ومعناه.⁽⁴⁰⁾ وهو موقف مجموعة من النقاد نذكر منهم: ابن رشيق ابن الأثير وعبد القاهر الجرجاني، في حين نجد فريقاً آخر ينتصر للمعنى على حساب اللفظ وعلى رأس هذا الفريق قدامة بن جعفر، أما الذين يؤثرون اللفظ عن المعنى نذكر منهم الجاحظ وأبوالهلال العسكري.

ثانياً - قضية السرقات الشعرية: وهي من أكثر القضايا إثارة للجدل بسبب عدم اتفاق النقاد على مفهوم موحد وثابت لها، فثمة من يقصرها على سرقة ألفاظ الشعراء الآخرين فقط، ومنهم من يتجاوزها إلى أخذ المعاني التي قصد إليها الآخرون في أشعارهم، ومنهم من يصمم على حدوثها باقتزان أخذ الألفاظ ومعانيها، وهو أمر يصعب لاحالة من مأمورية الشعراء في تجاوزها، لذلك قال ابن رشيق أنه ليس بوسع أحد من الشعراء أن يدعي السلامة من السرقات

الشعرية، لأن فيها أشياء غامضة إلا عن البصير الحاذق بالصناعة، وأخرى فاضحة لاتخفى على الجاهل المغفل.⁽⁴¹⁾ وربما كان هذا الغموض الذي لاينكشف إلا للبصير الحاذق بالصناعة، هو النوع المحمود من السرقات، لأنه غير مقصود، وهو ما ذهب إليه بعض الآراء التي لايتسع المجال لذكرها هنا.

آفة السرقات الشعرية وُصِّمَ بها العديد من كبار شعراء العصر العباسي أمثال: المتنبي، أبو تمام، البحتري، أبو نواس، وبشار وغيرهم، وهو ما يوحي بصعوبة تحديد مفهوم السرقات المقصودة، والتي لايستثنى البعض منها حتى الاقتباس والتضمن والاستشهاد، في حين لا يرى بعض النقاد بأساً فيها إذا التزم أصحابها بتطوير الفكرة وتحسينها، كما يرى ابن طباطبا الذي يقول: وإذا تناول الشاعر المعاني التي قد سبق إليها، فأبرزها في أحسن من الكسوة التي عليها، لم يُعَبَّ بل وَجِبَ له فضل لطفه وإحسانه فيه... ويحتاج من سلك هذه السبيل إلى إطاف الخيلة، وتدقيق النظر في تناول المعاني واستعارتها، وتلبسها حتى تختفي على نقادها البصراء بها، وينفرد بشهرتها كأنه غير مسبوق إليها⁽⁴²⁾

وهو الرأي نفسه الذي ذهب إليه نقاد آخرون، فهذا أبو هلال العسكري لايجد مانعا في أخذ هذا الشاعر عن ذاك، لكن شريطة أن يزيد على ما أخذه من شعر الآخرين إذ يقول: " ليس لأحد من أصناف القائلين غنى عن تناول المعاني ممن تقدّمهم، والصب على قوال من سبقهم، ولكن عليهم - إذا أخذوها - أن يكسوها ألفاظا من عندهم ويبرزونها في معارض من تأليفهم، ويوريدونها في غير حليتها الأولى، ويزيدوها في حسن تأليفها، وجودة تركيبها، وكمال حليتها ومعرضها، فإذا فعلوا ذلك فهم أحق بها ممن سبق إليها، ولولا أن القائل يؤدي ماسمع، لما كان في طاقته أن يقول، إنما ينطق الطفل بعد استماعه من البالغين"⁽⁴³⁾ والواضح من رأي أبي هلال العسكري أنه ليس ضد الأخذ (السرقات الشعرية) عندما تكون تحسينا وتهذيبا للأصل، بمعنى أن الأولوية للأسلوب وليس للمعنى، لأن المعنى موجود وهو في متناول الجميع وليس من حق أحد أن يزعم امتلاكه لوحده.

ثالثا - قضية القديم والجديد: قضية نقدية أخرى لاتقل أهمية عن سابقتها وهي قضية الصراع بين القديم والجديد، وهي قضية تعود إلى انحراف الشعر العربي عما كان عليه زمن الجاهلية، وقد كرس لهذا الانحراف بصورة أكبر الشاعر أبو تمام، فكما هو معلوم فإن تقاليد كتابة القصيدة الجاهلية كانت تبدأ بالوقوف على الأطلال والبكاء عليها، ثم يأتي الشاعر على وصف رحلته وما ناله فيها من تعب وسهر في الصحراء، واصفا حالته النفسية بسبب رحيل حبيبته التي يتفنن في وصف جمالها، ثم ينتقل إلى الغرض الرئيس للقصيدة مراعيًا مجموعة من القواعد، مثل تصوير الواقع على حقيقته دون مبالغة في الوصف، والاهتمام بالتشبيه مع تضمين القصيدة مجموعة من الحُكم وغيرها من القواعد الأخرى التي لايتسع المقام لذكرها.

هذا التقليد انحرف عنه بعض شعراء العصر العباسي مثل أبي نواس وأبي تمام والمتنبي، فكان أن انتصر لهم البعض من أنصار التجديد، كما كان أن هاجمهم أنصار القديم، والذين كان أغلبهم من علماء اللغة الذين انعكس حفظهم لأشعار الجاهليين على طبائعهم وأذواقهم وكانت قناعتهم أن اللغة العربية هي لغة البداوة التي لايمكن أن تكتمل أو تنضج خارج البداوة، وأن الإقامة في الحضر تُفسد الملكة وتُنقص البيان، وتجلب اللحن، وحجتهم في ذلك أنه ما لحق بالبيان العربي من الضعف والوهن، إلا بعد أن خرج العرب من الجزيرة العربية.⁽⁴⁴⁾ وإذا كان أنصار القديم هنا يقدمون الحجج التي تجعلهم ينتصرون للقديم، فإنهم في مواضع أخرى يتعصبون له حتى وإن كان أقل جودة من الجديد، كما حدث مرة مع ابن الأعرابي الذي انشده رجل شعرا لأبي نواس أحسن فيه، فسكت، فقال له الرجل: أما هذا من أحسن الشعر؟ قال: بلى، ولكن القديم أحب إلي.⁽⁴⁵⁾

وإذا كانت هذه حجج أنصار القديم، فإن الجديد كان له أيضا أنصاره، والذين يمكن أن نذكر منهم الجاحظ، وابن رشيق، وابن قتيبة، فهذا الأخير يذكر في كتابه (الشعر والشعراء) أنه لم يسلك فيما ذكره من شعر كل شاعر مختارا له، سبيل من قلاد، أو استحسن باستحسان غيره، ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه، وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره، بل نظرت بعين العدل إلى الفريقين، وأعطيت كلا حظّه، ووقّرت عليه حقّه.⁽⁴⁶⁾ وهذا يعني أن معيار الشعر عند ابن قتيبة لم يكن القدم أو الحداثة إنما كان الجودة، وهو موقف مستمد من موقف الجاحظ الذي رفض التعصب للشعر القديم بقوله: " إن القضية التي لا أحتشم منها، ولا أهاب الخصومة فيها أن عامة العرب، والأعراب والبدو والحضر من سائر العرب، أشعر من عامة الأمصار"⁽⁴⁷⁾، وفي حكم الجاحظ هذا انتصار للعنصر

العربي، بغض النظر عما إذا كان قديماً أو محدثاً، وهو معيار فيه الكثير من التحيز لأن تاريخ الشعر العربي يحفظ لنا أساء شعراء من غير العرب جادت قرائهم بأجمل القصائد، على العكس من شعراء عرب لم يكن شعرهم على درجة عالية من الجودة الفنية.

ولم تقتصر القضايا التي عالجها النقد العربي في العصر العباسي على ما ذكرناه، إنما تجاوزته إلى قضايا أخرى كالطبع والصناعة، والاتصال، ومقومات عمود الشعر، ونظرية النظم، وقضية الصدق والكذب، وغيرها من القضايا التي لا يتسع المجال لذكرها لأنها ليست من صميم إشكالية هذا البحث. إنما كان الهدف من ذكر هذه القضايا التي عالجها النقد العربي القديم، هو الوقوف على التشوهات التي لحقت بالقصيدة العربية، بعد احتكامنا للمناهج النقدية الغربية الحديثة والمعاصرة دون تحييص .

- خاتمة:

من خلال تتبعنا لمسار تطور النقد الأدبي العربي القديم، على امتداد أكثر من سبعة قرون - أي الفترة الممتدة من حياة النابغة الذبياني حتى بدايات القرن الثامن الهجري - فقد وقفنا على ذلك التنوع وذلك الثراء في المعايير التي كان يحتكم إليها النقاد العرب القدماء، سواء كانت هذه المعايير فنية أو أخلاقية أو حتى منهجية، الأمر الذي يسمح بوضع معالم نظرية نقدية، يأزرها من حجة علم العروض الذي برع فيه العرب، ومن حجة أخرى درس البلاغة الذي نبغوا فيه، لكن واقع الحال ليس كذلك فرغم كل هذا الثراء إلا أننا مازلنا حتى الآن نفتقد لهذه النظرية بسبب التعصب للرأي، ورفض الرأي الآخر، وهو المنطق الذي يحكم موقفنا من عديد القضايا النقدية التي تجاوزها الآخر، مثل الموقف من قصيدة التفعيلة وقصيدة النثر والموقف من التناص ومن قضايا أخرى كقضية الالتزام في الأدب وغيرها من القضايا التي ماتزال تثير الجدل في نقدنا العربي المعاصر.

إحالات البحث:

- 01 الجاحظ : البيان والتبيين، تح: عبد السلام هارون، ج 03، ط 07، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1998، ص 28
- 02 أبو الفرج الأصفهاني: كتاب الأغاني، ج 11، ط 01، مطبعة دار الكتب المصرية، مصر ، 1938، ص 06
- 03 المرجع نفسه، والصفحة نفسها.
- 04 المرجع نفسه، ص 03
- 05 ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ج 01، تح: أحمد محمد شاكر، ط 02، دار المعارف، مصر، 1958، ص 218 و 219
- 06 الإقواء هو اختلاف حركة حرف الروي في أحد الأبيات عن بقية حركته في بقية الأبيات
- 07 عبد الباسط بدر: التاريخ الشامل للمدينة المنورة، ج 01، ط 01، المدينة المنورة، السعودية، 1993، ص 124
- 08 أبو الفرج الأصفهاني: كتاب الأغاني، ج 21، تح: عبد الكريم العزاوي ومحمود غنيم، ط 01، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر ، 1993، ص 201
- 09 ابن رشيقي، العمدة، ج 01، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، ط 05، دار الجيل، سوريا، 1981، ص 27
- 10 إشارة إلى صاحب مخطوطة ربحان الألباب وربيان الشباب في مراتب الآداب، أبي القاسم محمد بن إبراهيم بن خيرة (المواعيني الإشبيلي)
- 11 أبو العباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى، ج 01، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1922، ص 272
- 12 نوال بن صالح : رفقة النديم في النقد القديم، محاضرات في تاريخ وقضايا النقد الأدبي، ط 01، مركز الكتاب الأكاديمي، عمان، 2017، ص 92 و 93
- 13 ابن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد، ج 06، تح: عبد المجيد الترحيني، ط 01، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983، ص: 119
- 14 ابن رشيقي، العمدة، ج 01، ص 28 (مرجع سابق)
- 15 أبو الفرج الأصفهاني: كتاب الأغاني، ج 02، تح: عبد الكريم العزاوي ومحمود غنيم، ط 01، مطبعة دار الكتب المصرية، مصر ، 1928، ص 200
- 16 ديوان الإمام علي، جمعه وضبطه وشرحه: نعم زرزور، ط 01، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1985
- 17 الديوان: ص 05
- 18 عباس محمود العقاد: عبقرية الإمام، ط 08، نهضة مصر، 2006، ص 115
- 19 عبد العزيز عتيق: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ط 02، دار النهضة العربية، بيروت لبنان، 1972، ص 82
- 20 عبد العزيز عتيق: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص: 114 (مرجع سابق)
- 21 المرجع نفسه، والصفحة نفسها.
- 22 أبوفرج الإصبهاني: كتاب الأغاني، تح: دار إحياء التراث، ج 01، ط 01، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1994، ص 108 و 109

- 23 مصطفى عبد الرحمن: في النقد الأدبي القديم عند العرب، ط01، مكة للطباعة، 1998، ص 109
- 24 بنت الشاطي: سكينه بنت الحسين (نقلا عن الأغاني)، ط01، دار الهلال، مصر د.س، ص:175.
- 25 المرجع نفسه، ص186 و187.
- 26 أحمد أمين: النقد الأدبي، ط01، مؤسسة هندواي، مصر، 2012، ص 373
- 27 المرزباني: الموشح، نخ: محمد شمس الدين، ط01، دار الكتب العلمية، لبنان، 1995، ص191
- 28 مصطفى عبد الرحمن: في النقد الأدبي القديم عند العرب، ص: 116 (مرجع سابق)
- 29 ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج05، ص: 297
- 30 المبرد: الكامل في اللغة والأدب، ج02، علق عليه محمد إبراهيم، ط03، دار الفكر العربي، مصر، 1997 ص:117
- 31 مصطفى عبد الرحمن: في النقد الأدبي القديم عند العرب، ص:119 (مرجع سابق)
- 32 القالي: الأمالي، ج02، دار الجليل، ط02، بيروت، لبنان، 1987، ص: 141 و142
- 33 أحمد أمين: النقد الأدبي، ص: 371 (مرجع سابق)
- 34 - ابن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء، السفر الأول، نخ: محمود شاكر، دار المدني، جدة، السعودية.
- 35 المرجع نفسه: ص51 و52
- 36 المرجع نفسه: ص 97
- 37 يُنظر ابن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء، السفر الثاني.
- 38 أحمد أمين: النقد الأدبي، ص: 379 (مرجع سابق)
- 39 المرزباني: الموشح، ص93 (مرجع سابق)
- 40 محمد الباكير: النقد العربي القديم، مؤسسة الرسالة، ط01، بيروت، ص: 272
- 41 ابن رشيقي، العمد، ج02، نخ: محمد محي الدين عبد الحميد، ط05، دار الجليل، سوريا، 1981، ص 280
- 42 ابن طباطبا: عيار الشعر، نخ: عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص79 و80
- 43 أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين، نخ: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط01، القاهرة، مصر، 1952، ص 196
- 44 طه أحمد إبراهيم: تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، دار الكتب العلمية، ط01، بيروت، لبنان، 2006، ص 98.
- 45 المرجع نفسه، ص 99
- 46 ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ج01، ص 62 (مصدر سابق)
- 47 أبو عثمان الجاحظ: الحيوان، ج01، نخ: عبد السلام هارون، ط02، دار إحياء الكتب العربية، ط01، القاهرة، مصر، 1965، ص: 130

قائمة المصادر والمراجع:

- 01 - ابن رشيقي، العمد، ج01، نخ: محمد محي الدين عبد الحميد، ط05، دار الجليل، سوريا، 1981.
- 02 - " نخ: محمد محي الدين عبد الحميد، ط05، دار الجليل، سوريا، 1981.
- 03 - ابن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء، السفر الأول، نخ: محمود شاكر، دار المدني، جدة، السعودية.
- 04 - " طبقات فحول الشعراء، السفر الثاني.
- 05 - ابن طباطبا: عيار الشعر، نخ: عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2005.
- 06 - ابن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد، ج06، نخ: عبد المجيد الترحيني، ط01، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983.
- 07 - " : العقد الفريد، ج05، نخ: عبد المجيد الترحيني، ط01، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983.
- 08 - ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ج01، نخ: أحمد محمد شاكر، ط02، دار المعارف، مصر، 1958.
- 09 - أبو العباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى، ج01، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1922.
- 10 - أبو الفرج الإصفهاني: كتاب الأغاني، ج01، نخ: دار إحياء التراث، ط01 دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1994.
- 11 - " ج02، نخ: عبد الكريم الزبواوي ومحمود غنم، ط01، مطبعة دار الكتب المصرية، مصر، 1928.
- 12 - " ج11، ط01، مطبعة دار الكتب المصرية، مصر، 1938.
- 13 - " ج21، نخ: عبد الكريم الزبواوي ومحمود غنم، ط01، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1993.
- 14 - أبو عثمان الجاحظ: البيان والتبيين، نخ: عبد السلام هارون، ج03، ط07، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1998.
- 15 - " : الحيوان، ج01، نخ: عبد السلام هارون، ط02، دار إحياء الكتب العربية، ط01، القاهرة، مصر، 1965.
- 16 - أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين، نخ: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط01، القاهرة، مصر، 1952.
- 17 - أحمد أمين: النقد الأدبي، ط01، مؤسسة هندواي، مصر، 2012.
- 18 - بنت الشاطي: سكينه بنت الحسين (نقلا عن الأغاني)، ط01، دار الهلال، مصر د.س .

- 19 - ديوان الإمام علي، جمعه وضبطه وشرحه: نعيم زرزور، ط01، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1985
- 20 - طه أحمد إبراهيم: تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، دار الكتب العلمية، ط01، بيروت، لبنان، 2006.
- 21 - عباس محمود العقاد: عبقرية الإمام، ط08، نهضة مصر، 2006.
- 22 - عبد الباسط بدر: التاريخ الشامل للمدينة المنورة، ج01، ط01، المدينة المنورة، السعودية.
- 23 - عبد العزيز عتيق: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ط02، دار النهضة العربية، بيروت لبنان، 1972.
- 24 - القالي: الأمالي، ج02، دار الجيل، ط02، بيروت، لبنان، 1987 .
- 25 - المبرد : الكامل في اللغة والأدب، ج02، علق عليه محمد إبراهيم، ط03، دار الفكر العربي، مصر، 1997.
- 26 - محمد الباكير: النقد العربي القديم، مؤسسة الرسالة، ط01، بيروت، 1987
- 27 - المرزباني: الموشح، تخ: محمد شمس الدين، ط01، دار الكتب العلمية، لبنان، 1995.
- 28 - مصطفى عبد الرحمن: في النقد الأدبي القديم عند العرب، ط01، مكة للطباعة، 1998.
- 29 - نوال بن صالح : رفقة النديم في النقد القديم، محاضرات في تاريخ وقضايا النقد الأدبي، ط01، مركز الكتاب الأكاديمي، عمان، 2017.